مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلّة إسلاميّة - ثقافيّة - جامعة - محكمة تصدر سنويًا

العدد الرابع والعشرون

1375 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2007 مسيحي

تصدر عن

كلية الدعوة الإسلامية

طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

الفكر اللغوي عند ابن خلدون من خلال مقدّمته

أ. د. محمّد السيّد بلاسي
جَامعَة الأزهر

إنما الأمة برجالها الأفذاذ الذين يخوضون في بحار الفكر ويرتادون المجاهل ليقتنصوا لأمتهم مشاعل تسير على أضوائها ويرفعوا للعالم منارات إشعاع وتوجيه. . .

ويعد صاحبنا وليّ الدين عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن خلدون من ألمع رجال الفكر والعلم الذين عرفهم التاريخ البشري. . .[1].

فهو عالم فذ من علماء المسلمين، متعدد المواهب والقدرات الفكرية

(1) تاريخ العلامة ابن خلدون: (كلمة الناشر) ـ بتصرف يسير ـ، ط. دار الكتاب اللبناني، سنة 1982م.

والعلمية. أجمعت دوائر العلم في الشرق والغرب على نبوغه وعبقريته، وأقبلت الجامعات والمعاهد على دراسة آثاره ونظرياته؛ لما تميزت به من الجدة والابتكار وعمق النظر ودقة التحليل[2].

ووصل الأمر إلى أن آراء المفكر العربي (ابن خلدون) في حقل السياسة والاجتماع قد وجدت ـ من الغربيين ـ من يتحمس لها تحمساً يصل بصاحبها إلى ذروة العبقرية والإبداع، حتى اعترف به واضعاً أول لعلم الاجتماع، وأقيمت الموازنات الطويلة بينه وبين فلاسفة هذا العلم في أوروبا؛ إذ قرنه الباحثون بأرسطو وأفلاطون، وقال عنه (غوميلوفتس) ـ أحد زعماء علم الاجتماع بألمانيا ـ: «إن ابن خلدون يعتبر مفكراً عصرياً بكل معنى الكلمة. إنه درس الحوادث الاجتماعية بعقل هادئ رزين، وأبدى آراء عميقة جداً لا أقول قبل (كانت) فحسب بل قبل (فيكو) أيضاً، والحقيقة أن ما كتبه ابن خلدون هو ما نسميه اليوم بعلم الاجتماع!»[3].

لمحة عن ابن خلدون والمقدمة[4]:

ولد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن

---

(2) من أعلام الحضارة الإسلامية: د. حمد بن ناصر الدخيل، ص339، الطبعة الأولى ـ دار الشبل بالرياض، سنة 1993م.

(3) الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير: د. محمد رجب البيومي، ص402 ـ بتصرف يسير ـ، ط. إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، سنة 1980م.

(4) لمزيد من التفصيل؛ يراجع: ترجمة ابن خلدون لنفسه في كتاب «العبر» (تاريخ العلامة ابن خلدون): 14/ 795 ـ 1224. والبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع: للشوكاني: 1/ 337 ـ 339: ط. دار المعرفة ببيروت، د.ت. ودراسات عن المؤرخين العرب: للمستشرق مارغوليوث، ترجمة د. حسين نصار، ص170 ـ 172، ط. دار الثقافة ببيروت، د.ت. وشذرت الذهب في أخبار من ذهب: للعماد الحنبلي، 7/ 77، 76، الطبعة الثانية ـ دار المسيرة ببيروت، سنة 1979م. والضوء اللامع لأهل القرن التاسع: للسخاوي، 4/ 145 ـ 149، ط. دار مكتبة الحياة ببيروت: د.ت. وكنوز الأجداد: لمحمد كرد علي، ص369 ـ 377، الطبعة الثانية ـ دار الفكر بدمشق سنة 1984م. والنجوم الزاهرة: لابن تغرى، 14/ 155، 156، ط. المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة، د.ت.

جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خلدون[5]، في تونس في مطلع شهر رمضان المعظم عام 732هـ (1332م) في أسرة أندلسية نزحت من الأندلس إلى تونس في أواسط القرن السابع الهجري، وكانت أسرة عريقة نابهة ذات علم ورياسة. أما والده فقد زهد في الحياة السياسية وآثر حياة الدرس والعلم، وبرز في الفقه وعلم اللغة، ونظم الشعر، وكان المعلم الأول لابنه عبد الرحمن[6].

قرأ ابن خلدون القرآن الكريم وحفظه، وتفقه في القراءات السبع ودرس شيئاً من التفسير والحديث والفقه، كما درس النحو واللغة على أشهر أساتذة تونس. وكانت تونس يومئذ مركز العلوم والآداب في المغرب. وأصبحت منذ انهيار الأندلس في أواسط القرن السابع الهجري منزل كثير من علماء الأندلس الذين شتتهم الحوادث[7].

نشأ ابن خلدون في عصر يغلب على علمائه الانصراف إلى اجترار القديم، والاتكاء على مؤلفات السابقين، والاتجاه إلى تجميعها وشرحها، وكتابة الحواشي والتقريرات عليها. لكنه لم يسلك هذا الطريق المعبّد السهل، وإنما نزع إلى تحكيم عقله الراجح وذهنه الوقاد فيما يقرأ ويطلع عليه من آثار الأقدمين، واستخدام اطلاعه الواسع ومكونات شخصيته الفذة في استنباط نظريات وقوانين لم يسبق إليها، وأكسبته شهرة مستفيضة في عصره، وما تلاه من عصور[8].

---

(5) ورد في هامش تحقيق تاريخ العلامة ابن خلدون، عند ترجمة ابن خلدون لنفسه، 14/ 795، ما نصه: (ابن خلدون) ـ بفتح الخاء ـ كما ضبطه (ابن خلدون) بخطه بالقلم مراراً، وكما نص عليه السخاوي في الضوء اللامع: 4/ 145.
أقول: وتأسيساً على ما سبق؛ فإننا نقول ابن خلدون ـ بفتح الخاء ـ؛ على سبيل الحكاية!

(6) ابن خلدون (732 ـ 808هـ): للدكتور عماد الدين خليل، ص125، بحث منشور في كتاب: أعلام التربية العربية الإسلامية (المجلد الرابع)، الناشر: مكتب التربية العربي لدول الخليج، سنة 1989م.

(7) المرجع السابق: ص125.

(8) من أعلام الحضارة الإسلامية: ص339.

فإنك إذا قرأت كتاباً أندلسياً وجدته يتحدث عن ابن خلدون علماً من أعلام الفكر الأندلسي، وإذا قرأت تاريخ الأدب المصري في عصر المماليك وجدت الحديث عن ابن خلدون قطباً من الأقطاب بوادي النيل، وإذا ألممت بالحركة الفكرية في المغرب شاهدت ابن خلدون قائداً من كبار قادتها في تونس؛ وذلك يؤكد منزلة هذا العملاق في الفكر العربي، وحرص كل قطر من الأقطار على فخر انتمائه[9].

شب ابن خلدون في تونس، أعجوبة من أعاجيب العقل، وسعة الاطلاع، ودقة الملاحظة. وُلّي الكتابة والوساطة بين الملوك في المغرب والأندلس. ثم انتقل إلى مصر حيث قلده السلطان برقوق قضاء المالكية. ثم استقال من منصبه وانقطع إلى التدريس والتصنيف؛ فكانت مؤلفاته من أهم المصادر للفكر العالمي. وأشهرها «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، وهو كتاب ضخم يقع في سبعة مجلدات. وأعظم أجزائه وأشعرها الكتاب الأول المسمى «مقدمة ابن خلدون»، ضمنه صاحبه قواعد فلسفة التاريخ والاجتماع، ونقد فيه الذين سبقوه وبين عيوبهم، ثم وصف تطور الأمم من البداوة إلى الحضارة، وترقي الشعوب في الاجتماع والدين والسياسة والاقتصاد والعلوم والفنون، وتكون الدول ونموها وانهيارها، وطبائع أهل البدو والحضر وما إلى ذلك. كل هذا، بطريقة متسلسلة وأسلوب منطقي، وتعبير سائغ سهل لا تكلف فيه ولا تقيد بسجع أو ببديع، بمعرفة لا حد لها، ونظر ينفذ إلى الأعماق، وتفهم صحيح لحقيقة الوجود الاجتماعي[10].

من هنا؛ فإن (مقدمة ابن خلدون) التي صدّر بها تاريخه (كتاب العبر) «تعدّ رائعة من روائع التأليف عند المسلمين؛ لما تضمنته من مباحث جديدة مبتكرة

(9) الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير: ص198.
(10) تاريخ العلامة ابن خلدون: (كلمة الناشر).

في علم الاجتماع، وفلسفة التاريخ والسياسة، والأدب، والتربية، وأسلوب الكتابة العربية»[11].

وعن الجو العام لتأليف المقدمة: فقد أتيحت لابن خلدون في عام 776هـ فترة طيبة للتفرغ في إحدى قلاع المغرب الأوسط والجزائر، وهي قلعة سلامة الواقعة جنوبي إقليم قسنطينة، وقد دامت هذه الفترة أربع سنوات، عكف الرجل خلالها على كتابة تلك المقدمة الخصبة التي تعد ـ بحق ـ فتحاً في مجال الفكر الإسلامي. ولقد كتبها ابن خلدون بعد أن تعلم الكثير من اثنتين وهب لهما شبابه: الأحداث التي شارك فيها، والدراسات الشاملة التي ما انفك يواصل صعود مسالكها وشعابها.

ولقد أتم الرجل كتابة مقدمته التي أرادها مدخلاً لتاريخه الكبير (العبر) في أشهر معدودات من عام 779هـ ثم عاد إليها فيما بعد لكي يتناولها بالتنقيح والتهذيب[12].

ولا عجب من بعدُ إذا ما رأينا (مقدمة ابن خلدون) تطبع عبر الزمن، في مصر والشام وأوروبا، وتترجم بكاملها أو ببعض أقسامها إلى اللغات الأجنبية[13].

أسلوب المقدمة وأثره في أسلوبنا المعاصر:

ولإيضاح تأثير المقدمة في النهضة الأدبية المعاصرة؛ نذكر أنها طبعت لأول مرة بمصر سنة 1857م. وكانت الأذهان إذ ذاك متطلعة إلى عهد جديد تلوح تباشيره فيما أعقب احتكاك مصر بالحضارة الأوروبية في عصر إسماعيل، ثم جاء جمال الدين الأفغاني لينشر أفكاره عن الاستقلال والحرية والكرامة

(11) من أعلام الحضارة الإسلامية ص343.
(12) من أعلام التربية العربية الإسلامية: 4/ 126.
(13) تاريخ العلامة ابن خلدون: (كلمة الناشر).

ومحاربة الاستعمار والتجبر وحكم الفرد مما يؤدي إلى فساد العمران كما يقول ابن خلدون[14].

ولم يكن الانتفاع بمقدمته وأسلوب كتابته فيها في وقت أظهر منه في العصر الحاضر فقد كان أسلوب ابن خلدون المرسل المجرد عن تكلف البديع والمحسنات اللفظية في تعبيره عن المباحث السياسية والعمرانية والاجتماعية والجغرافية والصناعية هو القدوة الحسنة للمصلحين والمجددين للنهضة الأدبية والعربية والسياسية من كتّاب العربية في مصر والشام وتونس، وخاصة من ألف منهم في مثل موضوعاته أو كتب في الجرائد والمجلات؛ لقلة المطبوع من الكتب، ولأنه أرحب أسلوب أدبي علمي للنقلة والمترجمين عن اللغات الأجنبية المحافظين على أصل المعنى؛ فهو كالأستاذ الأكبر لكتاب الصحف والمجلات في نهضتنا الأخيرة[15].

ويعقب الدكتور محمود رزق على ما قاله الشيخ أحمد السكندري، قائلاً: ولا ريب في أن أدباء النهضة تأثروا ـ إلى جانب ما تأثروا به ـ بآراء ابن خلدون ومنها آراؤه في نثر معاصريه فكان لذلك أثر مضاعف جعلهم يتجهمون لأسلافهم وينظرون إليهم نظرة عابسة، ويرمون أدبهم بالضعف والانحطاط ويتأبون عن دراسته وإذا أخذوا في دراسته أخذوا آراء ابن خلدون مسلطة على عقولهم فيدرسونها وبأقلامهم لوثة من هذه الآراء، وبدهي أن تأتي النتيجة وفق مقدماتها[16].

وللدكتور علي عبد الواحد وافي ملاحظة طريفة في هذا المجال: فقد رأى أن أخطاء ابن خلدون الأسلوبية في المقدمة قد انتقلت ـ أيضاً ـ إلى أقلام كتابنا،

(14) الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير: ص200، 201.
(15) عصر سلاطين المماليك: للدكتور محمود رزق سليم، 6/ 235، ط. مكتبة الآداب بالقاهرة. نقلاً عن كتاب الأدب العباسي: للشيخ أحمد الاسكندري، ص233.
(16) المرجع السابق: 6/ 235.

وكأنها صواب لا يقبل التصحيح؛ مما يدل على الثقة المفرطة في مقدرته والولوع الهائم باحتذائه[17].

يقول الدكتور محمد رجب البيومي: وطبعي أن جميع الرواد في النصف الأخير من القرن التاسع عشر لم يكونوا من محتذي أسلوب المقدمة، بل إن فيهم من لم تظهر على أسلوبه سمة واحدة من سماتها كعبد الله فكري وإبراهيم المويلحي وحمزة فتح الله والنديم، ولكن صفوة الكتاب إذ ذاك كجمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده وأديب إسحاق وعبد الرحمن الكواكبي قد نشروا أسلوب المقدمة كل جهد طاقته!! وكان من حسن الحظ أن يتتلمذ على جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده بصفة خاصة أكثر كتاب الجيل اللاحق، فيردوا موردهما، وينهجوا منهجهما، وإذ ذاك يقفز الأدب قفزته الطافرة، ويتحرر الأسلوب نهائياً من أوهامه.

ويضيف الدكتور البيومي: لقد كان ابن خلدون نابغة عصره دون نزاع ثم قدر له أن يقود النهضة الأدبية في عصرنا الحديث ليصبح في رحاب التاريخ الأدبي نابغة العصور...[18].

مجالات الدارسات اللغوية عند ابن خلدون

لقد رصد ابن خلدون في مقدمته الحركة اللغوية لمسيرة الفكر اللغوي حتى عصره، وخلص من خلال ذلك ـ بإيجاز شديد غير مخل ـ إلى ما يأتي:

أولاً: تعلم العربية من مقاصد الشريعة:

يوضح ابن خلدون أركان علوم اللسان العربي، فيذكر أنها أربعة وهي: (اللغة، والنحو، والبيان، والأدب).

---

(17) ابن خلدون: للدكتور علي عبد الواحد وافي، ص248، (سلسلة أعلام العرب).
هذا؛ ومن التراكيب المخطئة الذي أحصاها الدكتور وافي في المقدمة: «لا بد وأن»، «لا يترك شيئاً إلا وأحصاه». «لم يقتصر على ذلك بل وأخذ يعمل كيت وكيت».

(18) الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير: ص205، 209.

ويقول: معرفتها ضرورية على أهل الشريعة؛ إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة، وهي بلغة العرب ونقلها من الصحابة والتابعين عرب، وشرح مشكلاتها من لغتهم فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة[19].

ثانياً: أفضلية علوم اللسان العربي على بعض

يقول ابن خلدون: وتتفاوت في التأكيد بتفاوت مراتبها في التوفية بمقصود الكلام، حسبما يتبين في الكلام عليها فناً فناً. والذي يتحصل أن الأهم المقدم منها هو النحو؛ إذ به يتبين أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر، ولولاه لجهل أصل الإفادة. وكان من حق علم اللغة التقدم لولا أن أكثر الأوضاع باقية في موضوعاتها، لم تتغير بخلاف الإعراب الدال على الإسناد والمسند والمسند إليه؛ فإنه تغير بالجملة ولم يبق له أثر. فلذلك كان علم النحو أهم من اللغة؛ إذ في جهله الإخلال بالتفاهم جملة وليست كذلك اللغة والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق[20].

ثالثاً: علوم اللسان العربي

أ ـ علم النحو:

يقول ابن خلدون: اعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده. وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام، فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها، وهو اللسان. وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم. وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد؛ لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني.

---

(19) مقدمة ابن خلدون: ص 469.

(20) المصدر السابق: ص469.

مثل الحركات التي تعيّن الفاعل من المفعول من المجرور أعني المضاف، ومثل الحروف لتي تفضي بالأفعال إلى الذوات من غير تكلف ألفاظ أخرى. وليس يوجد ذلك إلا في لغة العرب. وأما غيرها من اللغات فكل معنى أو حال لا بد له من ألفاظ تخصه بالدلالة، ولذلك نجد كلام العجم في مخاطباتهم أطول مما نقدره بكلام العرب. وهذا هو معنى قوله ﷺ: «**أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً**». فصار للحروف في لغتهم والحركات والهيئات، أي الأوضاع، اعتبار في الدلالة على المقصود غير متكلفين فيه لصناعة يستفيدون ذلك منها. إنما هي ملكة في ألسنتهم يأخذها الآخر عن الأول كما تأخذ صبياننا لهذا العهد لغاتنا.

فلما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك[21]، الذي كان في أيدي الأمم والدول، وخالطوا العجم، تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي للمستعربين من العجم. والسمع أبو الملكات اللسانية، ففسدت بما ألقي إليها مما يغايرها، لجنوحها إليه باعتياد السمع. وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأساً ويطول العهد بها، فينغلق القرآن والحديث على المفهوم؛ فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة، شبه الكليات والقواعد، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشباه بالأشباه. مثل أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب، والمبتدأ مرفوع. ثم رأوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات، فاصطلحوا علي تسميته إعراباً، وتسمية الموجب لذلك التغير عاملاً وأمثال ذلك. وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم فقيدوها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة، واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو[22].

---

(21) لم تكن الفتوحات الإسلامية لطلب الملك ـ كما يزعم ابن خلدون ـ؟!! لكنها دعوة وجهاد؛ حيث قدم المسلمون فيما دماءهم وأموالهم؛ قربة لله، بل وضحوا بأعز ما يملكون؛ طلباً لرضوانه؛ من أجل نشر رسالة التوحيد..

(22) مقدمة ابن خلدون: ص469، 470.

ويضيف ابن خلدون: والتآليف في هذا الفن أكثر من أن تحصى أو يحاط بها، وطرق التعليم فيها مختلفة؛ فطريقة المتقدمين مغايرة لطريقة المتأخرين. والكوفيون والبصريون والبغداديون والأندلسيون مختلفة طرقهم كذلك[23].

ب ـ علم اللغة:

يوضح ابن خلدون أن هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية. وذلك أنه لما فسدت ملكة اللسان العربي، في الحركات المسماة عند أهل النحو بالإعراب، واستنبطت القوانين لحفظها كما قلناه. ثم استمر ذلك الفساد بملابسة العجم ومخالطتهم، حتى تعدى الفساد إلى موضوعات الألفاظ، فاستعمل كثير في غير موضوعه عندهم؛ ميلاً مع هجنة المستعربين في اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية؛ فاحتيج من كلام العرب إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين؛ خشية الدروس وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث، فشمر كثير من أئمة اللسان لذلك وأملوا فيه الدواوين. وكان سابق الحلبة في ذلك الخليل بن أحمد الفراهيدي. ألف فيها كتاب العين، فحصر فيه مركبات حروف المعجم كلها، من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي، وهو غاية ما ينتهي إليه التركيب في اللسان العربي[24].

واعتمد فيه ترتيب المخارج، فبدأ بحروف الحلق، ثم ما بعده من حروف الحنك ثم الأضراس، ثم الشفة؛ وجعل حروف العلة آخراً، وهي الحروف الهوائية. وبدأ من حروف الحلق بالعين، لأنه الأقصى منها. فلذلك سمى كتابه بالعين، لأن المتقدمين كانوا يذهبون في تسمية دواوينهم إلى مثل هذا، وهو تسميته بأول ما يقع فيه من الكلمات والألفاظ. ثم بين المهمل منها من المستعمل، وكان المهمل في الرباعي والخماسي أكثر لقلة استعمال العرب له

(23) المصدر السابق: ص470، 471.

(24) المصدر نفسه: ص471.

لثقله، ولحق به الثنائي لقلة دورانه، وكان الاستعمال في الثلاثي أغلب فكانت أوضاعه أكثر لدورانه. وضمن الخليل ذلك كله في كتاب العين واستوعبه أحسن استيعاب وأوفاه.

وجاء أبو بكر الزبيدي وكتب لهشام المؤيد بالأندلس، في المائة الرابعة؛ فاختصره مع المحافظة على الاستيعاب وحذف منه المهمل كله، وكثيراً من شواهد المستعمل، ولخصه للحفظ أحسن تلخيص.

وألف الجوهري من المشارقة كتاب «الصحاح»، على الترتيب المتعارف لحروف المعجم فجعل البداءة منها بالهمزة وجعل الترجمة بالحروف على الحرف الأخير من الكلمة، لاضطرار الناس في الأكثر إلى أواخر الكلم، فيجعل ذلك باباً. ثم يأتي بالحروف أول الكلمة، على ترتيب حروف المعجم أيضاً، ويترجم عليها بالفصول إلى آخرها. وحصر اللغة اقتداء بحصر الخليل.

ثم ألف فيها من الأندلسيين ابن سيده من أهل دانية، في دولة علي بن مجاهد، كتاب «المحكم» على ذلك المنحى من الاستيعاب، وعلى نحو ترتيب كتاب العين. وزاد فيه التعرض لاشتقاقات الكلم وتصاريفها؛ فجاء من أحسن الدواوين. ولخصه محمد بن أبي الحسين صاحب المستنصر من ملوك الدولة الحفصية بتونس. وقلب ترتيبه إلى ترتيب كتاب «الصحاح» في اعتبار أواخر الكلم وبناء التراجم عليها، فكانا توأمي رحم وسليلي أبوة.

ولكراع من أئمة اللغة كتاب المنجد، ولابن دريد كتاب الجمهرة ولابن الأنباري كتاب الزاهر.

هذه أصول كتب اللغة فيما علمناه. وهناك مختصرات أخرى مختصة بصنف من الكلم ومستوعبة لبعض الأبواب أو كلها؛ إلا أن وجه الحصر فيها خفي، ووجه الحصر في تلك جلي من قبل التراكيب كما رأيت. ومن الكتب الموضوعة أيضاً في اللغة كتاب الزمخشري في المجاز، وسماه «أساس

البلاغة»، بين فيه كل ما تجوزت به العرب من الألفاظ، فيما تجوزت به من المدلولات، وهو كتاب شريف الإفادة[25].

ويضيف ابن خلدون: ثم لما كانت العرب تضع الشيء لمعنى على العموم، ثم تستعمل في الأمور الخاصة ألفاظاً أخرى خاصة بها، فرق ذلك عندنا بين الوضع والاستعمال، واحتاج الناس إلى فقه في اللغة عزيز المأخذ؛ كما وضع الأبيض بالوضع العام لكل ما فيه بياض، ثم اختص ما فيه بياض من الخيل بالأشهب، ومن الإنسان بالأزهر، ومن الغنم بالأملح، حتى صار استعمال الأبيض في هذه كلها لحناَ وخروجاً عن لسان العرب. واختص بالتأليف في هذا المنحى الثعالبي، وأفرده في كتاب له سماه «فقه اللغة»، وهو من آكد ما يأخذ به اللغوي نفسه أن يحرف استعمال العرب عن مواضعه. فليس معرفة الوضع الأول بكاف في التركيب، حتى يشهد له استعمال العرب لذلك. وأكثر ما يحتاج إلى ذلك الأديب في فني نظمه ونثره، حذراً من أن يكثر لحنه في الموضوعات اللغوية في مفرداتها وتركيبها، وهو أشر من اللحن في الإعراب وأفحش. وكذلك ألف بعض المتأخرين في الألفاظ المشتركة وتكفل بحصرها، وإن لم يبلغ إلى النهاية في ذلك؛ فهو مستوعب للأكثر. وأما المختصرات الموجودة في هذا الفن، المخصوصة بالمتداول من اللغة الكثير الاستعمال، تسهيلاً لحفظها على الطالب، فكثيرة مثل «الألفاظ» لابن السكيت و«الفصيح» لثعلب وغيرها. وبعضهاأقل لغة من بعض لاختلاف نظرهم في الأهم على الطلب للحفظ. والله الخلاق العليم، لا رب سواه[26].

ج ـ علم البيان:

يقول ابن خلدون: هذا العلم حادث في الملة بعد علم العربية واللغة،

(25) المصدر السابق: ص472.

(26) المصدر نفسه: ص472، 473.

وهو من العلوم اللسانية؛ لأنه متعلق بالألفاظ وما تفيده. ويقصد بها الدلالة عليه من المعاني[27].

ويضيف ابن خلدون: فاشتمل هذا العلم المسمى بالبيان على البحث عن هذه الدلالات التي للهيئات والأحوال والمقامات، وجعل على ثلاثة أصناف: الصنف الأول يبحث فيه عن هذه الهيئات والأحوال، التي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال، ويسمى علم البلاغة؛ والصنف الثاني بحث فيه عن الدلالة على اللازم اللفظي وملزومه وهي الاستعارة والكناية ويسمى علم البيان. وألحقوا بهما صنفاً آخر، وهو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنسيق: إما بسجع يفصله؛ أو تجنيس يشابه بين ألفاظه؛ أو ترصيع يقطع أوزانه؛ أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه، لاشتراك اللفظ بينهما؛ أو طباق بالتقابل بين الأضداد، وأمثال ذلك، ويسمى عندهم علم البديع[28].

ويوضح ابن خلدون ثمرة هذا الفن، فيقول: واعلم أن ثمرة هذا الفن إنما هي في فهم الإعجاز من القرآن؛ لأن إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة؛ وهي أعلى مراتب الكمال، مع الكلام فيما يختص بالألفاظ، في انتقائها وجودة رصفها وتركيبها، وهذا هو الإعجاز الذي تقتصر الأفهام عن إدراكه. وإنما يدرك بعض الشيء منه من كان له ذوق بمخالطة اللسان العربي وحصول ملكته، فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه[29].

د ـ علم الأدب:

يرى ابن خلدون: أن هذا العلم لا موضوع له، ينظر في إثبات عوارضه أو نفيها. وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته، وهي الإجادة في فني المنظوم والمنثور، على أساليب العرب ومناحيهم؛ فيجمعون لذلك من كلام العرب ما

(27) المصدر السابق: ص473.
(28) المصدر نفسه: ص474.
(29) المصدر السابق: ص475.

عساه تحصل به الكلمة، من شعر عالي الطبقة وسجع متساو في الإجادة ومسائل من اللغة والنحو، مبثوثة أثناء ذلك، متفرقة، يستقري منها النظار في الغالب معظم قوانين العربية؛ مع ذكر بعض من أيام العرب، يفهم به ما يقع في أشعارهم منها. وكذلك ذكر المهم من الأساليب الشهيرة والأخبار العامة. والمقصود بذلك كله أن لا يخفى على الناظر فيه شيء من كلام العرب وأساليبهم ومناحي بلاغتهم إذا تصفحه، لأنه لا تحصل الملكة من حفظه إلا بعد فهمه، فيحتاج إلى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه[30].

ويضيف ابن خلدون: ثم أنهم إذا أرادوا حد هذا الفنّ قالوا: الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف؛ يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط، وهي القرآن والحديث؛ إذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم في كلام العرب إلا ما ذهب إليه المتأخرون عند كلفهم بصناعة البديع من التورية في أشعارهم وترسلهم بالإصلاحات العلمية؛ فاحتاج صاحب هذا الفن حينئذ إلى معرفة اصطلاحات العلوم؛ ليكون قائماً على فهمها. وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهي: أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي. وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها. وكتب المحدثين في ذلك كثيرة[31].

* * *

قضايا لغوية مهمة عالجها ابن خلدون

يُعد ابن خلدون أحد نوابغ العالم الذين عاشوا أفذاذاً في عصور مظلمة لم يعضدهم فيها مشاكل، أو تعرف قدرهم أمتهم؛ فكانت حياتهم بين الأمة التي

(30) المصدر نفسه: ص475، 476.

(31) المصدر السابق: ص476.

عاشوا فيها كلها شقاء ومحنة؛ فقد أداه نفوذ خاطره وصدق نظره إلى الاهتداء إلى كثير من علل الحوادث التي تنتاب الاجتماع البشري وعرف ما بينها من الارتباط والتشابه؛ حتى وقرت في نفسه بصور، قوانين عامة، وأقيسة مطردة، سال بها قلمه دون أن يفطن بها أهل قرنه، ولم ينكشف سرها ويتضح للباحثين صدق انطباقها على سنن العمران والاجتماع إلا بعد انقضاء عدة قرون[32].

فقد عالج ابن خلدون في مقدمته كثيراً من القضايا اللغوية العويصة معالجة حصيفة انطلاقاً من تفهم صحيح لحقيقة الوجود الاجتماعي، وذلك في وقت مبكر من مسيرة الفكر اللغوي العربي..

وإن كان ابن خلدون قد سبق بغيره من أعلام العربية في وضع لبنات لبعض هذه القضايا اللغوية، إلا أنه ـ بثقافته المتميزة والمتنوعة ـ شيد بتلك اللبنات صروحاً، وجملها بفكره، وتوجها بما جمعه من مادة أرحب انتقاها من تراث العربية الخالد!

ونظراً لأن ابن خلدون ـ رحمه الله ـ كان من علماء القرن الثامن الهجري ـ وحتى ذلك الوقت لم تكن الدراسات اللغوية المتعلقة بعلم اللغة قد كملت، بل كانت في طور من أطوار تكوينها ـ لذا فإنني أرى أن ابن خلدون بما عالجه من قضايا لغوية في مقدمته ـ يمثل حلقة من حلقات تطور الفكر اللغوي ومن هنا تكمن قيمة مثل تلك القضايا التي عالجها ابن خلدون.

هذا؛ في الوقت الذي نجد فيه ابن خلدون لم يحظ بالمكانة اللائقة به بين جمهور العلماء الذين ساهموا بمعالجة قضايا لغوية لها وزنها في حقل الدراسات اللغوية.

ومردّ ذلك ـ فيما نرى ـ إلى نبوغه المتفرد في علم الاجتماع؛ حتى عد

---

(32) عصر سلاطين المماليك: للدكتور محمود رزق سليم، 6/ 235، ط. مكتبة الآداب بالقاهرة. نقلاً عن كتاب الأدب العباسي: للشيخ أحمد الإسكندري، ص233.

واضعاً أول له؛ وعرف به فطغى هذا على ما عداه من العلوم الأخرى. .

وبمطالعة ما وصل إلينا من تراث هذا العالم الكبير، نجد أنه عالج في مقدمته كثيراً من القضايا اللغوية الشائكة بل كان له قصب السبق في الوقوف على معالمها فضلاً عن قضايا لغوية جديدة لم يتطرق إليها أحد من قبل. كل هذا من وجهة نظر متفردة، قوامها: (فلسفة التاريخ والاجتماع) ـ حتى لا نكاد نرى أحداً من العلماء أضاف إليها شيئاً في مسيرة الفكر اللغوي؛ مما يدل ـ دلالة قوية ـ على نضج فكر ابن خلدون اللغوي في معالجته لمثل تلك القضايا، واستوائها على يده مبكراً!

من بين تلك القضايا:

1 ـ الكتابة العربية عند ابن خلدون

يعرف ابن خلدون الكتابة بأنها: رسوم وأشكال حرفية تدل على الكلمات المسموعة الدالة على ما في النفس. . .

ويضيف بأنها: ثاني رتبة من الدلالة اللغوية، وهي صناعة شريفة؛ إذ الكتابة من خواص الإنسان التي يميز بها عن الحيوان. وأيضاً فهي تُطلع على ما في الضمائر وتتأدى بها الأغراض إلى البلد البعيد؛ فتقضى الحاجات، وقد دفعت مؤونة المباشرة لها، ويطلع بها على العلوم والمعارف وصحف الأولين، وما كتبوه في علومهم وأخبارهم؛ فهي شريفة بجميع هذه الوجوه والمنافع، وخروجها في الإنسان من القوة إلى الفعل إنما يكون بالتعليم[33].

الكتابة وجودة الخط. . . قرين بالعمران:

يقول ابن خلدون: وعلى قدر الاجتماع والعمران والتناهي في الكمالات

(33) مقدمة ابن خلدون (ت808هـ): ص328، 329 ـ الطبعة الأولى ـ دار الكتب العلمية ببيروت، سنة 1993م.

والطلب لذلك؛ تكون جودة الخط في المدينة؛ إذ هو من جملة الصنائع. . . وأنها تابعة للعمران؛ ولهذا نجد أكثر البدو أميين لا يكتبون ولا يقرأون، ومن قرأ منهم أو كتب فيكون خطه قاصراً وقراءته غير نافذة ونجد تعليم الخط في الأمصار الخارج عمرانها عن الحد أبلغ وأحسن وأسهل طريقاً؛ لاستحكام الصنعة فيها.

كما يحكى لنا عن هذا العهد، وأن بها معلمين منتصبين لتعليم الخط يلقون على المتعلم قوانين وأحكاماً في وضع كل حرف، ويزيدون إلى ذلك المباشرة بتعليم وضعه، فتعتضد لديه رتبة العلم والحس في التعليم، وتأتي ملكته على أتم الوجوه.

ويعلل ابن خلدون ذلك بقوله: وإنما أتى هذا من كمال الصنائع ووفورها بكثرة العمران وانفساح الأعمال.

ويضيف قائلاً: وليس الشأن في تعليم الخط بالأندلس والمغرب كذلك في تعلم كل حرف بانفراده، على قوانين يلقيها المعلم للمتعلم، وإنما يتعلم بمحاكاة الخط من كتابة الكلمات جملة، ويكون ذلك من المتعلم ومطالعة المعلم له، إلى أن يحصل له الإجادة ويتمكن في بنانه الملكة؛ فيسمى مجيداً. .[34].

تاريخ الكتابة العربية:

يقول ابن خلدون: وقدكان الخط العربي بالغاً مبالغه من الإحكام والإتقان والجودة في دولة التبابعة؛ لما بلغت من الحضارة والترف، وهو المسمى بالخط الحميري. وانتقل منها إلى الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر نسباء التبابعة في العصبية، والمجددين لملك العرب بأرض العراق. ولم يكن الخط عندهم

(34) المصدر السابق: ص329.

من الإجادة كما كان عند التبابعة؛ لقصور ما بين الدولتين. فكانت الحضارة وتوابعها من الصنائع وغيرها قاصرة على ذلك. ومن الحيرة لقنه أهل الطائف وقريش فيما ذكر.

ويقال: إن الذي تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أمية. ويقال: حرب ابن أمية، وأخذها من أسلم بن سدرة. وهو قول ممكن، وأقرب ممن ذهب إلى أنهم تعلموها من أياد أهل العراق؛ لقول شاعرهم:

قوم لهم ساحة العراق؛ إذا ساروا جميعاً، والخط والقلم

وهو قول بعيد؛ لأن إياداً، وإن نزلوا ساحة العراق؛ فلم يزالوا على شأنهم من البداوة. والخط من الصنائع الحضرية. وإنما معنى قول الشاعر أنهم أقرب إلى الخط والقلم من غيرهم من العرب؛ لقربهم من ساحة الأمصار وضواحيها؛ فالقول بأن أهل الحجاز إنما لقنوها من الحيرة، ولقنها أهل الحيرة من التبابعة وحمير ـ وهو الأليق من الأقوال.

ويضيف ابن خلدون: وكان لحمير كتابة تسمى المسند، حروفها منفصلة، وكانوا يمنعون من تعلمها إلا بإذنهم. ومن حمير تعلمت مُضَرُ الكتابة العربية، إلا أنهم لم يكونوا مجيدين لها شأن الصنائع إذا وقعت بالبدو، فلا تكون محكمة المذاهب ولا مائلة إلى الإتقان والتنميق لبون ما بين البدو والصناعة واستغناء البدو عنها في الأكثر، وكانت كتابة العرب بدوية مثل كتابتهم أو قريباً من كتابتهم لهذا العهد. أو نقول إن كتابتهم لهذا العهد أحسن صناعة؛ لأن هؤلاء أقرب إلى الحضارة ومخالطة أهل الأمصار والدول. وأما مُضَرُ فكانوا أعرق في البدو وأبعد عن الحضر من أهل اليمن وأهل العراق وأهل الشام ومصر؛ فكان الخط العربي لأول الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الإحكام والإتقان والإجادة، ولا إلى التوسط لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع[35].

(35) المصدر نفسه: ص329، 330.

2 ـ صناعة الخط عند ابن خلدون

يعرّف ابن خلدون الخط بأنه: بيان عن القول والكلام، كما أن القول والكلام بيان عما في النفس والضمير من المعاني؛ فلا بد لكل منهما أن يكون واضح الدلالة.

قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾[36]، وهو يشمل بيان الأدلة كلها[37].

أصول فن الخط:

يقرر ابن خلدون هذا الأمر فيقول: فالخط المجرد كماله أن تكون دلالته واضحة، بإبانة حروفه المتواضعة وإجادة وضعها ورسمها كل واحد على حدة متميز عن الآخر؛ إلا ما اصطلح عليه الكتاب من إيصال حرف الكلمة الواحدة بعضها ببعض، سوى حروف اصطلحوا على قطعها، مثل الألف المتقدمة في الكلمة، وكذا الراء والزاي والدال والذال وغيرها؛ بخلاف ما إذا كانت متأخرة، وهكذا إلى آخرها. ثم إن المتأخرين من الكتاب اصطلحوا على وصل كلمات، بعضها ببعض، وحذف حروف معروفة عندهم، لا يعرفها إلا أهل مصطلحهم فتستعجم على غيرهم. وهؤلاء كتاب دواوين السلطان وسجلات القضاة؛ كأنهم انفردوا بهذا الاصطلاح عن غيرهم؛ لكثرة موارد الكتابة عليهم، وشهرة كتابتهم وإحاطة كثير من دونهم بمصطلحهم. فإن كتبوا ذلك لمن لا خبرة له بمصطلحهم فينبغي أن يعدلوا عن ذلك إلى ا لبيان ما استطاعوه؛ وإلا كان بمثابة الخط الأعجمي لأنهما بمنزلة واحدة من عدم التواضع عليه[38].

---

(36) سورة الرحمن، الآيتان: 3 و4.

(37) مقدمة ابن خلدون: ص333.

(38) المصدر السابق: ص333.

فك المعمى (الشفرة):

ويضيف ابن خلدون: وليس بعذر في هذا القدر، إلا كتاب الأعمال السلطانية في الأموال والجيوش، لأنهم مطلوبون بكتمان ذلك عن الناس؛ فإنه من الأسرار السلطانية التي يجب إخفاؤها، فيبالغون في رسم اصطلاح خاص بهم، ويصير بمثابة المعمَّى. وهو الاصطلاح على العبارة عن الحروف بكلمات من أسماء الطيب والفواكه والطيور أو الأزاهر، ووضع أشكال أخرى غير أشكال الحروف المتعارفة يصطلح عليها المتخاطبون لتأدية ما في ضمائرهم بالكتابة. وربما وضع الكتاب للعثور على ذلك، وإن لم يضعوه أولاً، قوانين بمقاييس استخرجوها لذلك بمداركهم يسمونها «فك المعمى». وللناس في ذلك دواوين مشهورة والله العليم الحكيم[39].

رحلة الخط العربي:

يتتبع ابن خلدون هذه المرحلة؛ فيقول: لما جاء الملك للعرب، وفتحوا الأمصار، وملكوا الممالك ونزلوا البصرة والكوفة، واحتاجت الدولة إلى الكتابة، استعملوا الخط وطلبوا صناعته وتعلموه وتداولوه؛ فترقت الإجادة فيه، واستحكم، وبلغ في الكوفة والبصرة رتبة من الإتقان، إلا إذا كانت دون الغاية. والخط الكوفي معروف الرسم لهذا العهد.

ثم انتشرت العرب في الأقطار والممالك، وافتتحوا إفريقية والأندلس، واختط بنو العباس بغداد وترقت الخطوط فيها إلى الغاية، لما استبحرت في العمران، وكانت دار الإسلام ومركز الدولة العربية، وخالفت أوضاع الخط ببغداد أوضاعه بالكوفة، في الميل إلى إجادة وجمال الرونق وحسن الرواء. واستحكمت هذه المخالفة في الأمصار إلى أن رفع رايتها ببغداد علي بن مقلة

(39) المصدر نفسه: ص333.

الوزير ثم تلاه في ذلك علي بن هلال، الكاتب الشهير بابن البواب، ووقف سند تعليمها عليه في المائة الثالثة وما بعدها. وبعدت رسوم الخط البغدادي وأوضاعه عن الكوفة، حتى انتهى إلى المباينة. ثم ازدادت المخالفة بعد تلك العصور بتفنن الجهابذة في إحكام رسومه وأوضاعه، حتى انتهت إلى المتأخرين مثل ياقوت والولي علي العجمي. ووقف سند تعليم الخط عليهم، وانتقل إلى مصر، وخالفت طريقة العراق بعض الشيء، ولقنها العجم هنالك، فظهرت مخالفة لخط أهل مصر أو مباينة. وكان الخط الإفريقي المعروف رسمه القديم لهذا العهد يقرب من أوضاع الخط المشرقي. وتميز ملك الأندلس بالأمويين؛ فتميزوا بأحوالهم من الحضارة والصنائع والخطوط؛ فتميز صنف خطهم الأندلسي، كما هو معروف الرسم لهذا العهد. وطغا بحر العمران والحضارة في الدول الإسلامية في كل قطر. وعظم الملك ونفقت أسواق العلوم وانتسخت الكتب وأجيد كتبها وتجليدها، وملئت بها القصور والخزائن الملوكية بما لا كفاء له، وتنافس أهل الأقطار في ذلك وتناغوا فيه.

ثم لما انحل نظام الدولة الإسلامية وتناقصت تناقص ذلك أجمع، ودرست معالم بغداد بدروس الخلافة؛ فانتقل شأنها من الخط والكتابة، بل والعلم إلى مصر والقاهرة؛ فلم تزل أسواقه بها نافقة لهذا العهد. وللخط بها معلمون يرسمون للمتعلم الحروف بقوانين في وضعها وأشكالها متعارفة بينهم. فلا يلبس المتعلم أن يحكم أشكال تلك الحروف على تلك الأوضاع وقد لقنها حسناً وحذق فيها دربة وكتاباً، وأخذها قوانين عملية؛ فتجيء أحسن ما يكون.

وأما أهل الأندلس، فافترقوا في الأقطار، عند تلاشي ملك العرب بها ومن خلفهم من البربر، وتغلبت عليهم أمم النصرانية، فانتشروا في عُدوة المغرب وإفريقيا، من لدن الدول اللمتونية إلى هذا العهد وشاركوا أهل العمران بما لديهم من الصنائع، وتعلقوا بأذيال الدولة؛ فغلب خطهم على الخط الإفريقي

وعفي عليه ونسي خط القيروان والمهدية بنسيان عوائدهما وصنائعهما. وصارت خطوط أهل أفريقيا كلها على الرسم الأندلسي بتونس وما إليها، لتوفر أهل الأندلس بها عند الجالية من شرق الأندلس. وبقي منه رسم ببلاد الجريد الذين لم يخالطوا كتاب الأندلس ولا تمرسوا بجوارهم. إنما كانوا يفدون على دار الملك بتونس؛ فصار خط أهل أفريقيا من أحسن خطوط أهل الأندلس؛ حتى إذا تقلص ظل الدولة الموحدية بعض الشيء، وتراجع أمر الحضارة والترف بتراجع العمران، نقص حينئذ حال الخط وفسدت رسومه، وجهل فيه وجه التعليم بفساد الحضارة وتناقص العمران. وبقيت فيه آثار الخط الأندلسي، تشهد بما كان لهم من ذلك لما قدمناه من أن الصنائع إذا رسخت بالحضارة فيعسر محوها. وحصل في دولة بني مرين من بعد ذلك بالمغرب الأقصى لون من الخط الأندلسي؛ لقرب جوارهم وسقوط من خرج منهم إلى فاس قريباً واستعمالهم إياهم سائر الدولة. ونسي عهد الخط فيما بعد عن سدة الملك وداره كأنه لم يعرف. فصارت الخطوط بإفريقيا والمغربين مائلة إلى الرداءة بعيدة عن الجودة، وصارت الكتب إذا انتسخت فلا فائدة تحصل لمتصفحها منها، إلا العناء والمشقة لكثرة ما يقع فيها من الفساد والتصحيف وتغيير الأشكال الخطية عن الجودة، حتى لا تكاد تقرأ إلا بعد عسر. ووقع فيه ما وقع في سائر الصنائع، بنقص الحضارة وفساد الدول. والله يحكم لا معقب لحكمه[40].

3 ـ الرسم العثماني من وجهة نظر ابن خلدون

لقد قدس الله ـ تعالى ـ قرآنه المجيد، ومن مظاهر هذا التقديس: الرسم المصحفي، ويراد به الوضع الذي ارتضاه سيدنا عثمان رضي الله عنه في كتابة كلمات القرآن وحروفه؛ حيث إن الأصل في المكتوب أن يكون موافقاً تمام الموافقة للمنطوق، من غير زيادة ولا نقص ولا تبديل ولا تغيير. لكن

(40) المصدر السابق: ص331، 332.

المصاحف العثمانية قد أهمل فيها هذا الأصل؛ فوجدت بها حروف كثيرة جاء رسمها مخالفاً لأداء النطق؛ وذلك لأغراض شريفة ظهرت، ومنها ما هو مكنون على أسرار كتاب الله، والتي تفسر يوماً بعد آخر؟!![41].

موقف ابن خلدون من الرسم المصحفي:

يتزعم ابن خلدون الفريق القائل بأن رسم المصاحف اصطلاحي لا توقيفي؛ وعليه فتجوز مخالفته. ويرى هذا الفريق: أن ما في الرسم العثماني من زيادات أو حذوف لم يكن توقيفاً أوحي به من الله على رسوله ولو كان كذلك لآمنا به وحرصنا عليه، بل إن هذا الفريق ليذهب إلى ما هو أبعد من ذلك؛ فيرى أن هذا الرسم بما فيه من زيادات أو حذوف أو غيرها إنما هو خطأ من الكتاب؟!![42].

يقرر ذلك ابن خلدون بقوله: كان الخط العربي لأول الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الإحكام والإتقان والإجادة، ولا إلى التوسط لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع.

ويضيف قائلاً: وانظر ما وقع لأجل ذلك في رسمهم المصحف حيث

---

(41) مفاهل العرفان في علوم القرآن: للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، 1/ 369 ـ بتصرف ـ، ط. عيسى البابي الحلبي، د.ت.

(42) رسم المصحف والاحتجاج به في القراءات: د. عبد الفتاح إسماعيل شلبي، ص119 ـ بتصرف يسير ـ، ط. دار نهضة مصر، سنة 1380هـ. وراجع؛ بحوث ومقالات في فقه العربية: د. محمد السيد علي بلاسي، ص88 وما بعدها، الطبعة الأولى ـ دار الولاء للتراث، سنة 1994م؛ تجد مزيداً من التفصيل حول هذه القضية.

هذا؛ ولعل ما تحمس له ابن خلدون في قضية الرسم المصحفي وعدم توقيفيه ما قد فتح المجال للمستشرقين المغرضين ومن تابعهم من أمثال جولد تسيهر وآرثر جفري: من أن الرسم المصحفي أصل لاختلاف القراءات؟!! لمزيد من التفصيل؛ ينظر: قطوف من فقه اللغة: د. محمد السيد علي بلاسي، ص64 وما بعدها، الطبعة الأولى ـ دار ظافر، سنة 2000م.

رسمه الصحابة بخطوطهم، وكانت غير مستحكمة في الإجادة، فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته أقيسة رسوم صناعة الخط عند أهلها. ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبركاً بما رسمه أصحاب رسول الله ﷺ، وخير الخلق من بعده المتلقون لوحيه من كتاب الله وكلامه، كما يقتفى لهذا العهد خط ولي أو عالم تبركاً، ويتتبع رسمه خطاً وصواباً. وأين نسبة ذلك من الصحابة فيما كتبوه، فاتبع ذلك وأثبت رسماً، ونبه العلماء بالرسم على مواضعه.

ويتحمس ابن خلدون لما جنح إليه؛ قائلاً: ولا تلتفتن في ذلك إلى ما يزعمه بعض المغفلين من أنهم كانوا محكمين لصناعة الخط، وأن ما يتخيل من مخالفة خطوطهم لأصول الرسم ليس كما يتخيل؛ بل لكلها وجه. ويقولون في زيادة الألف في (لا أذبحنه): أنه تنبيه على أن الذبح لم يقع، وفي زيادة الياء في (بأييد) إنه تنبيه على كمال القدرة الربانية، وأمثال ذلك مما لا أصل له إلا التحكم المحض. وما حملهم على ذلك إلا اعتقادهم أن في ذلك تنزيهاً للصحابة عن توهم النقص في قلة إجادة الخط. وحسبوا أن الخط كمال، فنزهوهم عن نقصه، ونسبوا إليهم الكمال بإجادته، وطلبوا تعليل ما خالف الإجادة من رسمه وذلك ليس بصحيح. واعلم أن الخط ليس بكمال في حقهم، إذ الخط من جملة الصنائع المدنية المعاشية. والكمال في الصنائع إضافي، وليس بكمال مطلق؛ إذ لا يعود نقصه على الذات في الدين ولا في الخلال، وإنما يعود على أسباب المعاش وبحسب العمران والتعاون عليه لأجل دلالته على ما في النفوس وقد كان النبي ﷺ أمياً، وكان ذلك كما لا في حقه، وبالنسبة إلى مقامه؛ لشرفه وتنزهه عن الصنائع العملية التي هي أسباب المعاش والعمران كلها. وليست الأمية كمالاً في حقنا نحن؛ إذ هو منقطع إلى ربه، ونحن متعاونون على الحياة الدنيا، شأن الصنائع كلها، حتى العلوم الاصطلاحية. فإن الكمال في حقه هو تنزهه عنها جملة بخلافنا[43].

(43) مقدمة ابن خلدون: ص330، 331.

الرد على ما جنح إليه ابن خلدون:

يمكن أن يرد على ابن خلدون فيما جنح إليه هو ومن تابعه بما يأتي:[44]

أولاً: بالأدلة التي ساقها جمهور العلماء لتأييد مذهبهم، والتي بعضها من الكتاب والسنة وبعضها الآخر من إجماع الصحابة والتابعين وتابعيهم.

ويرى هذا الفريق: أن الرسم المصحفي توقيفي لا تجوز مخالفته.

واستدلوا بأن النبي ﷺ كان له كتّاب يكتبون الوحي، وقد كتبوا القرآن فعلاً بهذا الرسم وأقرهم الرسول على كتابتهم، ومضى عهده ﷺ والقرآن على هذه الكتبة لم يحدث فيه تغيير ولا تبديل. بل ورد أنه ﷺ كان يضع الدستور لكتاب الوحي في رسم المصحف وكتابته. ومن ذلك قوله لمعاوية ـ وهو من كتبة الوحي: «ألق الدواة، وحرّف القلم، وانصب الباء، ومرق السين، ولا تعور الميم، وحسن الله، ومد الرحمن، الرحيم، وضع قلمك على أذنك اليسرى، فإنه أذكر لك»[45].

ثم جاء أبو بكر فكتب القرآن بهذا الرسم في المصحف، ثم حذا حذوه عثمان في خلافته، فاستنسخ تلك الصحف في مصاحف على تلك الكتبة وأقر أصحاب النبي ﷺ عمل أبي بكر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين وانتهى الأمر بعد ذلك إلى التابعين وتابعي التابعين؛ فلم يخالف أحد منهم في هذا الرسم، ولم ينقل أن أحداً منهم فكر أن يستبدل به رسماً آخر من الرسوم التي حدثت في عهد ازدهار التأليف، ونشاط الدواوين، وتقدم العلوم. بل بقي الرسم العثماني محترماً متبعاً في كتابة المصاحف لا يمس استقلاله، ولا يباح حماه[46].

---

(44) مناهل العرفان في علوم القرآن: 1/ 381، 382 ـ بتصرف يسير ـ، وراجع ما بعدها من صفحات؛ تجد مزيداً من التفصيل.

(45) رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده: 4/ 465، مطبعة بريل في مدينة ليدن، سنة 1965م.

(46) المرجع السابق: ط/ 377 ـ بتصريف يسير.

ثانياً: أن ما ادعاه بعضهم من أنه ليس في نصوص السنة ما يوجب ذلك ويدل عليه. مردود بما سبق من إقرار الرسول ﷺ كتاب الوحي على هذا الرسم، ومنهم زيد بن ثابت الذي كتب المصحف لأبي بكر وكتب المصاحف لعثمان... والحديث الآنف، وفيه يقول الرسول ﷺ لمعاوية: «ألق الدواة، وحرف القلم.. الخ»؛ فإنه حجة على أنه ﷺ كان واضع دستور الرسم لهم.

ثالثاً: ما احتج به جمهور العلماء بأن للرسم العثماني أسراراً، ومزايا وأغراضاً عديدة، منها[47]:

1 ـ إن الرسم العثماني يدل على القراءات المتنوعة في الكلمة الواحدة. ولتوضيح ذلك: رسمت ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَنفَطَرْنَ﴾[48] هكذا ﴿تكاد السموات تنفطرن﴾ من غير ضبط ولا نقط، فهي برسمها هكذا تحتمل قراءة نافع والكسائي بالياء: ﴿يكاد السموات﴾ كما تحتمل قراءة الباقين من السبعة بالتاء: «تكاد». وقراءة حفص والكسائي ﴿تنفطرن﴾ بالتاء وفتح الطاء مشددة. وقراءة الباقين بالنون وكسر الطاء مخففة.

2 ـ إفادة المعاني المختلفة بطريقة تكاد تكون ظاهرة. وذلك نحو قطع كلمة ﴿أم﴾ في قوله تعالى: ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلًا﴾[49]. ووصلها في قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾[50]. إذ كتبت هكذا «أمن» بإدغام الميم الأولى في الثانية وكتابتهما ميماً واحدة مشددة؛ فقطع ﴿أم﴾ في الآية الأولى في الكتابة للدلالة على نها «أم» المنقطعة التي بمعنى بل، ووصل أم الثانية للدلالة على أنها ليست كتلك.

---

(47) نفس المرجع: 1/ 377 وما بعدها.

(48) سورة الشورى، الآية: 5.

(49) سورة النساء، الآية: 109.

(50) سورة الملك، الآية: 22.

3 ـ الدلالة على معنى خفي دقيق كزيادة الياء في كتابة كلمة (أيد) من قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾[51] إذ كتبت هكذا (بأييد) ـ بياءين ـ وذلك للإيماء إلى تعظيم قوة الله التي بنى بها السماء وأنها لا تشبهها قوة على حد القاعدة المشهورة: «زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى»!

ومن هذا القبيل: حذف الواو من قوله: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾[52] ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ﴾[53]؛ للدلالة على سرعة وقوع الفعل وسهولته على الفاعل، وشدة قبول المنفعل للتأثر به في الوجود!؟

4 ـ إفادة بعض اللغات الفصيحة. مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾[54]. كتبت بحذف الياء هكذا «يأت» للدلالة على لغة هذيل!.

5 ـ حمل الناس على أن يتلقوا القرآن من صدور ثقات الرجال، ولا يتكلوا على هذا الرسم العثماني الذي جاء غير مطابق للنطق الصحيح في الجملة.

وينضوي تحت هذه الفائدة مزيتان:

أ ـ التوثق من ألفاظ القرآن وطريقة أدائه وحسن ترتيله وتجويده. فإن ذلك لا يمكن أن يعرف على وجه اليقين من المصحف، مهما تكن قاعدة رسمه واصطلاح كتابته؛ فقد تخطئ المطبعة في الطبع، وقد يخفى على القارئ بعض أحكام تجويده، كالقلقلة والإظهار والإخفاء والإدغام والروم والإشمام ونحوها، فضلاً عن خفاء تطبيقها.

---

(51) سورة الذاريات، الآية: 47.

(52) سورة الإسراء، الآية: 11.

(53) سورة الشورى، الآية: 24.

(54) سورة هود، الآية: 105.

ولهذا قرر العلماء: أنه لا يجوز التعويل على المصاحف وحدها. بل لا بد من التثبت في الأداء والقراءة، بالأخذ عن حافظ ثقة. وإن كنت في شك فقل لي بربك: هل يستطيع المصحف وحده بأي رسم يكون، أن يدل قارئاً أياً كان على النطق الصحيح بفواتح السور الكريمة، مثل: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، ﴿حٰمٓ﴾، ﴿عٓسٓقٓ﴾، ﴿طسٓمٓ﴾؟! ومن هذا الباب الروم والإشمام ي قوله سبحانه: ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾[55]، من كلمة (لا تأمنا)!

ب ـ اتصال السند برسول الله ﷺ؛ وتلك خاصية من خواص هذه الأمة الإسلامية امتازت بها على سائر الأمم.

مما سبق يتضح: أنه لا صحة لما جنح إليه ابن خلدون في مقدمته من أن الرسم المصحفي اصطلاحي، وأن ما ورد فيه من زيادات أو حذف أو غيرها إنما هو خطأ من الكتاب؟!!

فالأمر ـ كما وضحنا بالأدلة والبراهين ـ لا يتعلق بإحكام الخط من عدمه، كما جنح إلى ذلك ابن خلدون وتحمس: إن الأمر متعلق بتوقيفية الرسم المصحفي كما سبق أن وضحنا!

من هنا؛ يجب الالتزام بالرسم العثماني، وذلك مذهب جمهور العلماء؛ ويستشهدون على ذلك بقول إمامين جليلين من أئمة المذاهب.

فقد سئل الإمام مالك: هل يكتب المصحف على ما أحدث الناس من الهجاء فقال لا، إلا على الكتبة الأولى.

والإمام أحمد بن حنبل يقول: «تحرم مخالفة خط عثمان في ياء أو ألف أو واو أو غيره»[56].

وجاء في حواشي المنهج في فقه الشافعية ما نصه: «كلمة [الربا] تكتب

---

(55) سورة يوسف، الآية: 11.

(56) رسم المصحف والاحتجاج به في القراءات: ص116، 117، نقلاً عن المحكم: ص15.

بالواو والألف كما جاء في الرسم العثماني، ولا تكتب في القرآن بالياء أو الألف؛ لأن رسمه سنة متبعة»[57].

وجاء في المحيط البرهاني في فقه الحنفية ما نصه: «إنه ينبغي ألا يكتب المصحف بغير الرسم العثماني»[58].

هذا، «وقد أثيرت هذه المسألة في زماننا، وكان للجنة الفتوى في الأزهر الشريف إسهام فيها؛ إذ رأت الوقوف عند المأثور من كتابة المصحف وهجائه واحتجت لما رأته: بأن القرآن كتب في عهد النبي ﷺ برسم كتبت به مصاحف عثمان. استمر المصحف مكتوباً بهذا الرسم في عهد الصحابة والتابعين وتابعي التابعين والأئمة المجتهدين في عصورهم المختلفة، ولم ينقل عن أحد من هؤلاء جميعاً أنه رأى تغيير هجاء المصحف عن ما رسم به أولاً إلى تلك القواعد التي حدثت في عهد ازدهار التأليف في البصرة والكوفة..»[59].

ورأى حفني ناصف ـ عليه رحمه الله ـ: «وجوب المحافظة على الرسم العثماني؛ لمعرفة القراءة المقبولة والمردودة، وفي المحافظة احتياط شديد لبقاء القرآن على أصله لفظاً وكتابة فلا يفتح فيه باب الاستحسان»[60].

4 ـ اللغة ملكة صناعية عند ابن خلدون

يقرر ابن خلدون هذا بقوله: اعلم أن اللغات كلها شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان، للعبارة عن المعاني وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها وليس ذلك بالنظر إلى المفردات، وانما هو بالنظر إلى التراكيب.

---

(57) مناهل العرفان في علوم القرآن: ص379.

(58) المرجع نفسه.

(59) رسم المصحف والاحتجاج به في القراءات: ص118 نقلاً عن مجلة الرسالة: العدد 216 سنة 1937م.

(60) المرجع السابق: ص118، نقلاً بتلخيص عن مجلة المقتطف: عدد يوليو سنة 1933م.

ويضيف قائلاً: فالمتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم، يسمع كلام أهل جيله، وأساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم؛ كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها؛ فيلقنها أولاً، ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك. ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم، واستعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم.

هكذا تصيرت الألسن واللغات من جيل إلى جيل وتعلمها العجم والأطفال. وهذا هو معنى ما تقوله العامة من أن اللغة للعرب بالطبع أي بالملكة الأولى التي أخذت عنهم، ولم يأخذوها عن غيرهم. ثم فسدت هذه الملكة لمضر بمخالطتهم الأعاجم. وسبب فسادها أن الناشئ من الجيل، صار يسمع في العبارة عن المقاصد كيفيات أخرى غير الكيفيات التي كانت للعرب، فيعبر بها عن مقصوده لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم، ويسمع كيفيات العرب أيضاً؛ فاختلط عليه الأمر وأخذ من هذه وهذه، فاستحدث ملكة وكانت ناقصة عن الأولى. وهذا معنى فساد اللسان العربي[61].

هذا؛ ويكشف ابن خلدون عن السر في أن العجمة إذا سبقت إلى اللسان قصرت بصاحبها في تحصيل العلوم عن أهل اللسان العربي، فيقول: والسر في ذلك أن مباحث العلوم كلها إنما هي في المعاني الذهنية والخيالية، من بين العلوم الشرعية، التي هي أكثر مباحثها في الألفاظ وموادها من الأحكام المتلقاة من الكتاب والسنة ولغاتها المؤدية لها، وهي كلها في الخيال؛ وبين العلوم العقلية، وهي في الذهن. واللغات إنما هي ترجمان عما في الضمائر من تلك المعاني، يؤديها بعض إلى بعض بالمشافهة في المناظرة والتعليم، وممارسة البحث بالعلوم لتحصيل ملكتها بطول المران على ذلك. والألفاظ واللغات

(61) مقدمة ابن خلدون: ص477.

وسائط وحجب بين الضمائر، وروابط وختام عن المعاني. ولا بد في اقتناص تلك المعاني من ألفاظها لمعرفة دلالاتها اللغوية عليها، وجودة الملكة لناظر فيها؛ وإلا فيعتاص عليه اقتناصها زيادة على ما يكون في مباحثها الذهنية من الاعتياص[62].

ويضيف ابن خلدون قائلاً: وقد تقدم لنا أن اللغة ملكة في اللسان، وكذا الخط صناعة ملكتها في اليد؛ فإذا تقدمت في اللسان ملكة العجمة، صار مقصراً في اللغة العربية، لما قدمناه من أن الملكة إذا تقدمت في صناعة بمحل، فقل أن يجيد صاحبها ملكة في صناعة أخرى، وهو ظاهر.

وإذا كان مقصراً في اللغة العربية ودلالتها اللفظية والخطية اعتاص عليه مفهم المعاني منها كما مر. إلا أن تكون ملكة العجمة السابقة لم تستحكم حين انتقل منها إلى العربية، كأصاغر أبناء العجم الذين يربون مع العرب قبل أن تستحكم عجمتهم، فتكون اللغة العربية كأنها السابقة لهم، ولا يكون عندهم تقصير في فهم المعاني من العريبة. وكذا أيضاً شأن من سبق له تعلم الخط الأعجمي قبل العربي.

ولهذا نجد الكثير من علماء الأعاجم في دروسهم ومجالس تسليمهم يعدلون عن نقل التفاسير من الكتب إلى قراءتها ظاهراً يخففون بذلك عن أنفسهم مؤونة بعض الحجب ليقرب عليهم تناول المعاني[63].

ويضيف: ولا يعترض ذلك أيضاً مما كان لليونانيين في علومهم من رسوخ القدم فإنهم إنما تعلموها من لغتهم السابقة لهم وخطهم المتعارف بينهم. والأعجمي المتعلم للعلم في الملة الإسلامية يأخذ العلم بغير لسانه الذي سبق إليه، ومن غير خطه الذي يعرف ملكته. فلهذا يكون له ذلك حجاباً كما قلناه. وهذا عام في جميع أصناف أهل اللسان الأعجمي من الفرس والروم والترك

---

(62) المصدر السابق: ص467، 468.

(63) المصدر نفسه.

والبربر والفرنج، وسائر من ليس من أهل اللسان العربي. وفي ذلك آيات للمتوسمين[64].

5 ـ الاحتجاج اللغوي عند ابن خلدون

هو ذلك المنهج الذي يعنى بوضع الضوابط والقوانين التي تحكم الاستعمال اللغوي في مستوياته المختلفة، بحيث يعد الخروج عليه ضرباً من ضروب اللحن[65].

وقد وضع اللغويون شروطاً ومعايير لذلك تشمل الزمان والمكان:

فمن ناحية الزمان: حدّد اللغويون العرب الفصحاء الذين يوثق بعربيتهم ويستشهد بكلامهم بنهاية القرن الثاني الهجري بالنسبة لعرب الأمصار، وأواسط القرن الرابع الهجري بالنسبة لعرب البدو من جزيرة العرب، وسموا هذه العصور بـ: «عصور الاحتجاج»[66].

أما من ناحية المكان: فقد ربطوه بفكرة البداوة والحضارة، فكلما كانت القبيلة بدوية أو أقرب إلى حياة البداوة كانت لغتها أفصح والثقة فيها أكثر. وكلما كانت متحضرة. أو أقرب إلى حياة الحضارة كانت لغتها محل شك ومثار شبهة؛ ولذلك تجنبوا الأخذ عنها[67].

---

(64) المصدر السابق: ص469.

(65) الموجز في البحث اللغوي: د. محمد سعد، ص62. نقلاً عن: البحث اللغوي بين النظرية والتطبيق: د. محمد عفيفي7 ص93. ولمزيد من التفصيل، يراجع: المدخل إلى البحث اللغوي: د. محمد السيد علي بلاسي، ص63 وما بعدها، الطبعة الأولى ـ المطبعة العصرية بيروت، سنة 1999م.

(66) ينظر؛ مجلة مجمع الخالدين: 1/ 202، 294، 303. وفقه اللغة: د. علي عبد الواحد وافي، ص199، ط، دار نهضة مصر. د.ت. واللغة العربية.. خصائصها وسماتها: د. عبد الغفار هلال ص138، الطبعة الثالثة، سنة 1406هـ.

(67) البحث اللغوي عند العرب: د. أحمد مختار عمر، ص47، 48، الطبعة الرابعة مطابع سجل العرب، سنة 1402هـ.

ويوضح ذلك أحد اللغويين المحدثين بقوله: وحين استعرضنا مساكن البدو والحضر وحالتهم الاجتماعية؛ تبين لنا أن العلماء قد أسسوا فصاحة القبيلة على دعامتين:

الأولى: مقدار قرب مساكنها مكة وما حولها.

والثانية: مقدار توغلها في البداوة[68].

أقول: لقد قرر ابن خلدون هذه المعايير في مقدمته، وسبق اللغويين حين قال: ولهذا كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها؛ لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم. ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبني كنانة وغطفان وبني أسد وبني تميم. وأما من بُعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان وإياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشة، فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم. وعلى نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية[69].

وخرج ابن خلدون لنا من مسحه الشامل للأقطار الناطقة في عهده من خلال تطبيق هذه المعايير ـ بحقيقة، قررها بقوله: اعلم أن عرف التخاطُبِ في الأمصارِ وبينَ الحَضَرِ ليس بلغَةِ مُضَرَ القديمةِ، ولا بلغة أهل الجيل؛ بل هي لغة أخرى قائمة بنفسها بعيدة عن لُغَةِ مضر وعن لغة هذا الجيل العربي الذي لعهدنا، وهي عن لغة مضر أبعد.

فأما أنها لغة قائمة بنفسها فهو ظاهر، يشهد له ما فيها من التغاير الذي بعد عن صناعة أهل النحو لحناً، وهي مع ذلك تختلف باختلاف الأمصار في اصطلاحاتهم؛ فلغة أهل المشرق مباينة بعض الشيء للغة أهل المغرب، وكذا أهل الأندلس معهما وكل منهم متوصل بلغته إلى تأدية مقصوده والإبانة عما في

---

(68) في اللهجات العربية: إبراهيم أنيس، ص51، 52 ـ بتصرف يسير ـ ص6 ـ مكتبة الأنجلو المصرية، د.ت.

(69) مقدمة ابن خلدون: ص477.

نفسه. وهذا معنى اللسان واللغة. وفقدان الإعراب ليس بضائر لهم، كما قلناه في لغة العرب لهذا العهد.

وأما أنها أبعدُ عن اللسان الأول من لغة هذا الجيل؛ فلأن البعد عن اللسان إنما هو بمخالطة العجمة فمن خالط العجم أكثر كانت لغته عن ذلك اللسان الأصلي أبعد، لأن الملكة إنما تحصل بالتعليم... وهذه ملكة ممتزجة من الملكة الأولى التي كانت للعرب. ومن الملكة الثانية التي للعجم. فعلى مقدار ما يسمعونه من العجة ويربون عليه يبعدون عن الملكة الأولى واعتبر ذلك في أمصار إفريقية والمغرب والأندلس والمشرق. أما أفريقية والمغرب، فخالطت العرب فيها البرابرة من العجم لوفور عمرانها بهم، ولم يكد يخلو عنهم مصر ولا جيل؛ فغلبت العجمة فيها على اللسان العربي الذي كان لهم، وصارت لغة أخرى ممتزجة، والعجمة فيها أغلب لما ذكرناه، فهي عن اللسان الأول أبعد. وكذا المشرق لما غلب العرب على أممه من فارس والترك فخالطوهم، وتداولت بينهم لغاتهم في الأكرة والفلاحين والسبي الذين اتخذوهم خولاً وودايات وأظآراً ومراضع؛ ففسدت لغتهم بفساد الملكة حتى انقلبت لغة أخرى. وكذا أهل الأندلس مع عجم الجلالقة والإفرنجة. وصار أهل الأمصار كلهم من هذه الأقاليم أهل لغة أخرى مخصوصة بهم، تخالف لغة مضر ويخالف أيضاً بعضها بعضاً كما نذكره، وكأنها لغة أخرى لاستحكام ملكتها في أجيالهم. والله يخلق ما يشاء ويقدر[70].

6 ـ القياس في اللغة العربية عند ابن خلدون:

انقسم علماء اللغة حيال ذلك إلى فرق ثلاثة[71]:

(70) المصدر السابق: ص480.

(71) للمزيد من التفصيل، يراجع: الاشتقاق عند الزجاج.. مع عمل اشتقاقي لغوي من كتبه المتاحة: للدكتور/ محمد السيد علي بلاسي، ص84 وما بعدها (رسالة دكتوراه مخطوطة بكلية اللغة العربية ـ جامعة الأزهر الشريف سنة 1993م).

الفريق الأول:

مذهب جمهور العلماء ويرى أنه لا يصح القياس بهذا العمل إلا حين يكون له سند من نصوص اللغة يبرهن على أن العرب أصحاب اللغة قد جاؤوا بمثله أو نظيره، وأن هذا النظير كثير الورود في كلامهم المروي عنهم[72].

وقد ذهب إلى هذا ابن جني[73] ومن قبله أبو علي الفارسي والمازني وغيرهم من اللغويين.

ويقول أبو عثمان المازني: ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب ألا ترى أنك لم تسمع أنت ولا غيرك اسم كل فاعل ولا مفعول، وإنما سمعت بعضها؛ فقست عليها غيره[74].

هذا، وقد انتصر لهذا الفريق ابن خلدون؛ حيث يقول: اعلم أن النقل الذي تثبت به اللغة، إنما هو النقل عن العرب أنهم استعملوا هذه الألفاظ لهذه المعاني، لا تقل إنهم وضعوها لأنه متعذر وبعيد، ولم يعرف لأحد منهم. وكذلك لا تثبت اللغات بقياس ما لم يعلم استعماله، على ما عرف استعماله في ماء العين، باعتبار الإبكار الجامع. لأن شهادة الاعتبار في باب القياس إنما يدركها الشرع الدال على صحة القياس من أصله. وليس لنا مثله في اللغة إلا بالعقل، وهو محكم، وعلى هذا جمهور الأئمة. وإن مال إلى القياس فيها القاضي وابن سريج وغيرهما. لكن القول بنفيه أرجح[75].

الفريق الثاني:

ويمثله ابن الأنباري الذي: صرح وقرر أن هناك فرقاً بين النحو واللغة:

---

(72) من أسرار اللغة: د. إبراهيم أنيس، ص48، الطبعة الثالثة ـ الأنجلو المصرية، سنة 1966م.

(73) راجع؛ الخصائص: لابن جني. !/ 121، 358، 3/ 270 وما بعدها، تحقيق محمد علي النجار، ط3 ـ عالم الكتب سنة 1403هـ.

(74) انظر؛ دراسات في العربية وتاريخها: للإمام الشيخ محمد الخضر حسين، ص70، الطبعة الثانية، الناشر: المكتب الإسلامي بدمشق، سنة 1380هـ.

(75) مقدمة ابن خلدون: ص473.

فالنحو علم قائم على المقاييس المستنبطة من كلام العرب، والقياس جاء في النحو بل قال إن (النحو كله قياس).

ثم قال: بخلاف اللغة فإنها وضعت وضعاً نقلياً لا عقلياً، فلا يجوز القياس بل يقتصر على ما ورد به النقل[76].

الفريق الثالث:

وقد حاول التوفيق بين نوعين من الألفاظ التي لم يتصرف بها العرب، حيث نوع كثر وروده في كلامهم من غير تصرف، فدل ذلك على قصدهم لإبقائه على هيئة؛ وقد تم فلا يجوز لنا نحن أن نتصرف منه. ونوع قل وروده في كلامهم فلم يعرف قصدهم فيه فيجوز لنا ـ إذن ـ أن نتصرف فيه[77].

7 ـ الطريق إلى تعلم الفصحى من منظار ابن خلدون

يوجه ابن خلدون نصيحته في هذا المضمار قائلاً: اعلم أن ملكة اللسان المضري، لهذا العهد. قد ذهبت وفسدت. ولغة أهل الجيل كلهم مغايرة للغة مضر التي نزل بها القرآن، وإنما هي لغة أخرى من امتزاج العجمة بها. إلا أن اللغات لما كانت ملكات كان تعلمها ممكناً، شأن سائر الملكات. ووجه التعليم لمن يبغي هذه الملكة ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآن والحديث، وكلام السلف، ومخاطبات فحول العرب في أسجاعهم وأشعارهم، وكلمات المولدين أيضاً في سائر فنونهم؛ حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم ولقن العبارة عن المقاصد منهم؛ ثم يتصرف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره على حسب عباراتهم، وتأليف كلماتهم، وما وعاه وحفظه من أساليبهم وترتيب

(76) تعليل الأسماء: د. محمد حسن جبل، ص52، 53 (بحث منشور بمجلة كلية اللغة العربية فرع جامعة الأزهر المنصورة: العدد العاشر، سنة 1410هـ).

(77) الاشتقاق وأثره في النمو اللغوي: د. عبد الحميد محمد أبو سكين ص81 ـ بتصرف يسير ـ الطبعة الأولى ـ الأمانة، سنة 1399هـ.

ألفاظهم؛ فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال، ويزداد بكثرتهما رسوخاً وقوة. ويحتاج مع ذلك إلى سلامة الطبع والتفهم الحسن لمنازع العرب وأساليبهم في التراكيب ومراعاة التطبيق بينها وبين مقتضيات الأحوال. والذوق يشهد بذلك، وهو ينشأ ما بين هذه الملكة والطبع السليم فيهما. وعلى قدر المحفوظ وكثرة الاستعمال تكون جودة المقول المصنوع نظماً ونثراً ومن حصل على هذه الملكات، فقد حصل على لغة مضر، وهو الناقد البصير بالبلاغة فيها، وهكذا ينبغي أن يكون تعلمها[78].

ويؤكد ابن خلدون أن حصول ملكة اللسان العربي إنما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب، حتى يرتسم في خياله المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم فينسج هو عليه. ويتنزل بذلك منزلة من نشأ معهم وخالط عباراتهم في كلامهم، حتىء حصلت له الملكة المستقرة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم[79].

ويوضح ابن خلدون: أن حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ وجودتها بجودة المحفوظ؛ فيقول تحت هذا العنوان: قد قدمنا أنه لا بد من كثرة الحفظ. لمن يروم تعلم اللسان العربي؛ وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته في جنسه وكثرته من قلته، تكون جودة الملكة الحاصلة عنه للحافظ. فمن كان محفوظه من أشعار العرب الإسلاميين شعر حبيب أو العتابي أو ابن المعتز أو ابن هانئ أو الشريف الرضي؛ أو رسائل ابن المقفع أو سهل بن هارون أو ابن الزيات أو البديع أو الصابئ؛ تكون ملكته أجود وأعلى مقاماً ورتبة في البلاغة، ممن يحفظ أشعار المتأخرين مثل شعر ابن سهل أو ابن النبيه أو ترسل البيساني أو العماد الأصبهاني، لنزول طبقة هؤلاء عن أولئك. يظهر ذلك للبصير الناقد صاحب الذوق. وعلى مقدار جودة المحفوظ أو المسموع، تكون جودة الاستعمال من

(78) مقدمة ابن خلدون: ص481.

(79) المصدر السابق: ص482.

بعده، ثم إجادة الملكة من بعدهما. فبارتقاء المحفوظ في طبقته من الكلام، ترتقي الملكة الحاصلة لأن الطبع إنما ينسج على منوالها، وتنمو قوى الملكة بتغذيتها[80].

هذا؛ ويرجع ابن خلدون السبب في أن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلية، في منثورهم ومنظومهم؛ فيقول: فإنا نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والحطيئة وجرير والفرزدق ونصيب وغيلان ذي الرمة والأحوص وبشار، ثم كلام السلف من العرب في الدولة الأموية وصدراً من الدولة العباسية، في خطبهم وترسيلهم ومحاوراتهم للملوك أرفع طبقة في البلاغة بكثير من شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير وعلقمة بن عبدة وطرفة بن العبد، ومن كلام الجاهلية في منثورهم ومحاوراتهم. والطبع السليم والذوق الصحيح شاهدان بذلك للناقد البصير بالبلاغة.

والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث، اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثليهما، لكونها ولجت في قلوبهم ونشأت على أساليبها نفوسهم؛ فنهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة عن ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية، ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها؛ فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأصفى رونقاً من ذوقك إن كنت من أهل الذوق والتبصر بالبلاغة[81].

وبعد؛ فإنني أعد مقدمة ابن خلدون موسوعة من الموسوعات الفكرية المنفردة بهذا الإيجاز المبهر، الملفت للأنظار؛ وكأنها مقدمات لكل العلوم! حتى لكأني لا أجد علماً من العلوم الفكرية إلا وجدناه في هذا الكتاب؛ بحيث جمع أطرافه، ملخصاً إياه؟!!

ولا عجب؛ ففي عصر النكبات تكثر الموسوعات: فمن رحمة الله تعالى

(80) المصدر نفسه: ص495، 496.

(81) المصدر السابق: ص497.

وفضله أن هيأ بعد نكبة بغداد جلة من العلماء الموسوعيين من أمثال: العلامة السيوطي، وابن خلدون، وابن تيمية، وابن القيم.. الخ.

جاء هذا بعد عصر المحن؛ فقد وفقهم الله تعالى إلى جمع تراث السابقين في شتى مجالات المعرفة؛ ولعلهم أخذوا الدرس من ضياع ما ضاع من تراث المسلمين في دجلة، في الوقت الذي لم تصل إليه أنظمة حديثة لجمع التراث كالكمبيوتر ـ مثلاً ـ؛ فكان العلماء الأجلاء؛ ولعله لحكمة عظيمة، وهي حفظ تراث المسلمين المتعلق بكتاب الله ـ تعالى ـ!

رحم الله المفكر العظيم العلامة ابن خلدون (ت 808 هـ) ـ رحمة واسعة بقدر ما قدم للإنسانية وأفادها من منبع علمه، وفيض معرفته، وأسكنه فسيح جناته مع الخالدين...

أهم المصادر والمراجع بعد القرآن الكريم

1 ـ ابن خلدون: للدكتور علي عبد الواحد وافي، (سلسلة أعلام العرب).

2 ـ ابن خلدون (732 ـ 808هـ): للدكتور عماد الدين خليل، بحث منشور في كتاب: أعلام التربية العربية الإسلامية (المجلد الرابع)، الناشر: مكتب التربية العربي لدول الخليج، سنة 1989م.

3 ـ الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثر: د. محمد رجب البيومي، ط. إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، سنة 1980م.

4 ـ الاشتقاق عند الزجاج.. مع عمل معجم اشتقاقي لغوي من كتبه المتاحة: للدكتور/ محمد السيد علي بلاسي، (رسالة دكتوراه مخطوطة محفوظة بكلية اللغة العربية ـ جامعة الأزهر الشريف) سنة 1993م.

5 ـ الاشتقاق وأثره في النحو اللغوي: د. عبد الحميد محمد أبو سكين، الطبعة الأولى ـ مطبعة الأمانة، سنة 1399هـ.

6 ـ البحث اللغوي عند العرب: د. أحمد مختار عمر، الطبعة الرابعة ـ مطابع سجل العرب، سنة 1402هـ.

7 ـ بحوث ومقالات في فقه العربية: د. محمد السيد علي بلاسي، الطبعة الأولى ـ دار الولاء للتراث، سنة 1994م.

8 ـ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع: للشوكاني، ط. دار المعرفة ببيروت، د.ت.

9 ـ تعليل الأسماء: د. محمد حسن جبل، (بحث منشور بمجلة كلية اللغة العربية فرع جامعة الأزهر المنصورة: العدد العاشر، سنة 1410هـ).

10 ـ تاريخ العلامة ابن خلدون: ط. دار الكتاب اللبناني، سنة 1982م.

11 ـ الخصائص: لابن جني، تحقيق محمد علي النجار، ط3 ـ عالم الكتب، سنة 1403هـ.

12 ـ دراسات عن المؤرخين العرب: للمستشرق مارغوليوث، ترجمة د. حسين نصار، ط. دار الثقافة بيروت، د.ت.

13 ـ دراسات في العربية وتاريخها: للإمام الشيخ محمد الخضر حسين، الطبعة الثانية، الناشر: المكتب الإسلامي بدمشق، سنة 1380هـ.

14 ـ رسم المصحف والاحتجاج به في القراءات: د. عبد الفتاح إسماعيل شلبي، ط. دار نهضة مصر، سنة 1380هـ.

15 ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب: للعماد الحنبلي، الطبعة الثانية ـ دار المسيرة بيروت، سنة 1979م.

16 ـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: للسخاوي، ط. دار مكتبة الحياة ببيروت: د.ت.

17 ـ عصر سلاطين المماليك: للدكتور محمود رزق سليم، ط. مكتبة الآداب بالقاهرة.

18 ـ فقه اللغة: د. علي عبد الواحد وافي، ط. دار النهضة مصر، د.ت.

19 ـ في اللهجات العربية: إبراهيم أنيس، ط6 ـ مكتبة الأنجلو المصرية، د.ت.

20 ـ قطوف من فقه اللغة: د. محمد السيد علي بلاسي، الطبعة الأولى ـ دار ظافر، سنة 2000م.

21 ـ كنوز الأجداد: لمحمد كرد علي، الطبعة الثانية ـ دار الفكر بدمشق سنة 1984م.

22 ـ اللغة العربية.. خصائصها وسماتها: د. عبد الغفار هلال، الطبعة الثالثة، سنة 1406هـ.

23 ـ مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (العدد الأول).

24 ـ المدخل إلى البحث اللغوي: د. محمد السيد علي بلاسي، الطبعة الأولى ـ العصرية بيروت، سنة 1999م.
25 ـ مقدمة ابن خلدون (ت808هـ): الطبعة الأولى ـ دار الكتب العلمية ببيروت، سنة 1993م.
26 ـ من أسرار اللغة: د. إبراهيم أنيس، الطبعة الثالثة ـ الأنجلو المصرية، سنة 1966م.
27 ـ من أعلام الحضارة الإسلامية: د. حمد بن ناصر الدخيل، الطبعة الأولى ـ دار الشبل بالرياض، سنة 1993م.
28 ـ مناهل العرفان في علوم القرآن: للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، ط. عيسى البابي الحلبي، د.ت.
29 ـ الموجز في البحث اللغوي: د. محمد سعد، نقلاً عن: البحث اللغوي بين النظرية والتطبيق: د. محمد عفيفي (بدون طباعة وتاريخ).
30 ـ النجوم الزاهرة: لابن تغرى، ط. المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة، د.ت.